الفصل الثالث

الـــولاء

يعد ضروريا لفهم التأويل الفلسفى للدين عند « رويس » ، أن يتم عرض ودراسة فلسفته فى « الولاء » . لأن من الواضح أنه قد ربط بين الإيمان الصادق والمعنى الحقيقى للولاء . فإذا كان جوهر الإيمان فى نظره ، يتمثل فى الإنتماء إلى « الكنيسة الحقة » ، ويتحقق خلاص الفرد بالولاء « للمجتمع المحبوب » ، فإن الفهم لفكر « رويس » الدينى ، لن يتأتى إلا بفهم المقصود بالولاء وفلسفته . والحياة الأخلاقية المرتبة عليه . ولما كان « رويس » لايفصل بين الأخلاق والدين [١] . فإن دراسة فلسفة الولاء عنده ، يدخل ضمن نطاق التأويل الفلسفى للدين .

أولا: الحياة الأخلاقية للولاء

أ – طبيعة الولاء والحاجة إليه

يرى « رويس » أن إحدى سمات العصر الحديث تتمثل فى إعادة بحث ومراجعة المعتقدات القديمة ، وإنتشر هذا الاتجاه الناقد ليشمل مجال العلم والدين والأخلاق ، ولئن كانت العلوم قادرة على الدفاع عن نفسها وإعتبر المؤمنون الشك الدينى قدر العصر الحاضر بسبب إنتشار الثقافة الفردية ، إلا أن التشكيك فى أساس الأخلاق ، أمر يصعب قبوله ، لأنه يشمل العالم المرئى واللامرئى ، ويشكك فى الجهود المبذولة لتطوير العلم ، ولتحقيق المحبة التى تنادى بها الأديان فما قيمة العلم والدين ، إذا كانت الحياة الإنسانية ذاتها ، والتى يعملا على دفعتها ، ليس لها معايير أخلاقية ثابته ، يستطيع أن يقيس الفرد بها قيمتها . وإذا ما حامت ودارت التســاؤلات حول معايير الأخلاق ، فـإن الشـك ينفذ الى القلوب . لذلك يرى « رويس » أن من الضرورى دراسة أسس الحياة الأخلاقية وقوانينها ، وربطها بالجانب العملى للحياة الإنسانية . ولما كانت حيرة إنسان العصر الحديث قد أثرت على السلوك

(١) J.Royce : The Philosophy of Loyalty (1908), The Macmillan Company , New York, 1930 . pp. 377-383 .

العملى للفرد ، فإن دراسه الأخلاق تعد ضرورية لتنوير العقول وتأكيد الأفعال . ولا بد من تحديد الموقف الأخلاقى ، والبحث عن روح جديدة ، يتم بها مراجعة الأخلاق التقليدية (١) ، ولما كان النقد عمل الفلسفة ، فإن فلسفة الولاء ، هى القادرة على الوصول الى روح هذه الأخلاق التقليدية بدون هدمها ، أو القضاء عليها . وتشير هذه الفلسفة الى إعتبار الولاء مبدأ أخلاقى طالما أن كلمة فلسفة ، تشير الى المبادىء الأولى ، والى دراسة نقدية للولاء . وإلى الإعتماد على العقل لوضع تعريف له ، وتحديد القضايا المناسبة له ، والى الغوص الى أعماق السلوك الإنسانى والى منبع القيم والمعايير الأخلاقية .

ويضع « رويس » تعريفا إبتدائيا للولاء ، وإن كان يعود إلى تعديله بعد ذلك ، بأنه الرغبة والإخلاص العملى والكامل والمستمر من شخص ما تجاه قضية ما (٢) . ويكون الفرد مخلصا ، إذا كان لديه قضية نابعة من إرادته ويعمل بإستمرار لخدمتها ، ولا يفعل ذلك بوحى داخلى ذاتى ، وإنما بوحى من القضيه يرشده الى ما يجب القيام به من أفعال . ولابد من أن تحظى القضية بتقدير الفرد لها ، ولا يعنى الولاء مجرد المحبة لها لأن للقضية قيمتها الخاصة والمستقلة عن الفرد ، فلا تستمد قيمتها من سعادة الفرد بها – لأنها قد يخلص لها عده أفراد ، فالولاء إجتماعى . ولما كانت القضية تؤدى الى توحيد مجموعة من الأفراد لخدمتها ، فإنها تبدو للمخلص أنها ذو طبيعة موضوعية ولها صفة فوق إنسانية فقد يحب الفرد فرداً آخراً ، ولكنه لا يخلص إلا إلى رابطه تجمعه مع مجموعة من الأفراد فى نوع من الوحدة فيكون مخلصاً لهم فقطمن خلال هذه الوحدة . فلا يكون الحبيب المخلص مثلاً ، مخلصاً للمحبـوب بإعتباره فرداً مستقلاً عنه ، وإنما يكون مخلصاً لحبة ذاته ولوحدتهما معاً ، فيرى فى الحب موضوعاً مستقلاً عن أى منهما وله قيمته فى ذاته .

وأما بالنسبة لتحديد قيمة الولاء ، ومدى حاجة الإنسان إليه ، فإنها مسأله تتطلب تحديد القضايا التى تستحق الإخلاص لها ، وتبرير سبب هذا الإخلاص . أما إذا تم النظر للولاء بصفة عامة ، وبصرف النظر عن صلاحية وفساد القضية ، فإن المخلص يتصف

---

(١) JIbid., p. 12 .

(٢) JIbid., p.17.

بالنشاط والحيوية ويستسلم لقضيته ويتحكم فى رغباته ويتمتع بحالة عقلية مستقرة ، لأن الولاء يعالج التردد ، ويوجه حياة الفرد ويحقق لها الإستقرار . والحقيقة ان توضيح قيمه الولاء مسألة تتطلب معرفة طبيعةالموقف الأخلاقى . فالفرد يتعلم واجباته ومثله العليا والقانون الأخلاقى من سلطة خارجية ولكن إذا تساءل عن السبب عن لماذا يكون واجبه هو واجبه ؟ فانه لا يستقبل إجابة من أى سلطة خارجية لان واجبه يكون عبارة عن إرادته الذاتية وقد وضحت فى الشعور . لذلك إذا أراد إجابة لتساؤله ، علية أن يرتد الى ذاته وإرادته العاقلة . ولكن من جهة أخرى ، يلاحظ الفرد أنه لا يتسطيع معرفة إرادته من مجرد التفكير فى رغباته اللحظية وإذا ما عزل نفسه عن الآخرين لا يجد إلا مجموعة من الدوافع والرغبات المتغيرة ، ولذا فهو فى حاجة إلىالتدريب الإجتماعى . لذلك يكون الفرد فى موقف أخلاقى متناقض . إذا أراد معرفة واجبه فلا بد من إستشارة إرادته العاقلة ، وفى نفس الوقت إذا ترك لذاته لا يستطيع معرفة خطه حياته أوإرادته ، ولا بد أن يعتمد على الآخرين ومحاكاتهم حتى يعرف إرادته ، كما يستمر التناقض فى تلك الحياة الأخلاقية ، فبالرغم من أن الفرد يتعلم معرفة إرادته من النظام الأخلاقى ، إلا أن ذلك لايؤدى إلى معرفة حقيقة كل الموقف الأخلاقى ، فحقيقة يتعلم الفرد من الخطط التى يقدمها له النظام الإجتماعى ، ولكنها غالبا ما تكون خططاً ناقصة ، لا تمثل كل الحياة المثالية ، كما أن الفرد أيضا قد يستطيع تكوين الخطط ووصفها وتفسيرها تبعا لمصلحته . فالمجتمع يعلم الفرد ، وبعد ذلك قد يثور الفرد عليه . لذلك من الواضح أن الحياة الأخلاقية تقوم على جدل لا ينتهى بين الداخل والخارج . فيعرف الفرد واجبه بإرادته عندما يظهر فى الوعى الذاتى ولكن فى نفس الوقت لا يستطيع معرفة إرادته إلا من خلال التدريب الإجتماعى الذي يمده بالخطط ، فيصبح ماهراً ويسعى لمعارضه النظام الإجتماعى . لذلك يرى « رويس » أن الركون إلى الداخل فقط أو الخارج فقط ، لا يؤدى الى معرفة أى سلطة حاكمة ثابته ، أو خطة مستقره متناسقه للحياة ، ولا بد من تكوين نوع من الوحدة بين الداخل والخارج بين عالم الذات وعالم المجتمع بين السلوك الفطرى والمكتسب ، ومثل هذا النوع من الوحدة ، هو ما يسمى بالولاء . إن

الولاء لقضية ما « الدفاع عن الوطن مثلاً » ، يحل الصراع بين الإرادة الذاتية والجمعية . ويحول الشرف إلى إذعان والثورة الى طاعة ، ويصبح الإستسلام للقضية نوعاً من الرغبة الذاتيه وتتوحد السلطة والخدمة ، ولا يتعارض الإذعان مع تمتع الفرد بالإرادة الذاتية . لأنه يوجه الإنتباه لقضية ما ، ويفرض على الفرد النظر خارج ذاته لمعرفة هذه القضية الموحدة ، وبين له خطة واحدة للعمل ، فيحل إشكالية تناقض الوجود الإجتماعى للفرد ، فيبين للفرد القضية التى يخلص لها ، ويؤكد له أنه لن يفقد إرادته الذاتية بها وإنما سيعبر عنها فى العمل من أجل هذه القضية (١) .

ب – صفات سلوك الولاء وقضاياه

إذا كان الولاء يمثل الخير الأقصى للفرد ، فمن الضرورى معرفة القضايا التى تستحق الولاء وصفات السلوك المخلص تجاهها . ولئن كان هناك العديد من الأمثلة التى يمكن منها تحقيق هذه المعرفة ، إلا أن بعضها قد يترك إنطباعاً بأن الولاء يتصل بأمور مادية أوبسلطة تلزم الفرد بواجبات معينة . والحقيقة أن المسأله على النقيض من ذلك ، فالولاء يرتبط بالأصالة والإبداع ، وغالبا ما يعبر المخلص عن ولائه بفعل جديد ، لا يستمده من العادات والروتين ، أو من إعداد مسبق وإنما يخترعه إختراعا ، فيكون الفرد مبتكراً لواجباته ولأنماط السلوك المحققه لها ، مثلما يكون مخلصا لها . فقد يجد الفرد نفسه فى موقف جديد تماماً ، لا يتشابه مع أى من المواقف القديمه التى قد عرفها من التقاليد والأعراف فيلجأ الى إبتكار سلوك جديد ، يعبر عن التوحد الكامل والإرادى بين الذات والقضية ، ويجمع بين تأكيد الذات والإذعان للقضية ، أو يحقق له الكرامة ولا يتعارض مع التقاليد المألوفه (٢) . وتلك الصفات هى صفات سلوك الولاء الحق . فعندما يختار الفرد القضية التى يخلص لهـا ، يسلم نفسه لها فتصبح لسانه الذي يتحدث به ، ويفعل ما تأمره به . وأما بالنسبة لصفات القضية التى تستحق إخلاص الفرد لها ، فانها توصف بالخيرية ، طالما كانت أساساً قضية الولاء من الولاء ، وتساعد على تنمية وتحقيق ولاء الآخرين ،

---

(١) JIbid., p. 42 .

(٢) JIbid., p. 45 .

والحقيقة أن هناك من القضايا ، ما يخلص لها الفرد ولكنها تعد قضايا شريرة بالرغم من هذا الإخلاص . فاذا كانت القضية التى يخلص لها الفرد تتعلق بخصومة عائلية مثلا فانها تحيا بتحطيم ولاء العائلات الأخرى فقد يحقق الفرد خيره وخير من يشاركونه نفس القضية ولكنه يكون فى نفس الوقت ضد روح الولاء والتى قد تظهر فى إخلاص الخصوم لقضيتهم حقيقة أن القضية تتضمن نوعاً من الولاء للولاء ، لأن الإخلاص لأى قضية ، يعنى التأييد لولاء الآخرين الذين يشتركون معه فى نفس القضية ولكن إذا كانت القضية ، تحيا بالتغلب على ولاء الآخرين لقضاياهم ، فإنـــها قضيه فاسدة ، لأنـــها تحوى عدم الإخلاص لقضية الولاء ذاتها (١) .

وقد يقدم النظام الإجتماعى مجموعه من القضايا العملية والحيوية ، والتى يمكن أن توحد حياة الأفراد ، الا أن ولاء الفرد لهذه القضايا ليس قدراً حتمياً ، وللفرد حق الاختيار ، ويستطيع التمييز بين القضايا الصالحة والقضايا الفاسدة ، ويمكن صياغة القاعدة التى يتسند عليها الفرد فى إختيارة فى العبارة التالية « طالما أن لديك القدرة على إختيار القضية والعمل على خدمتها ، وتعرف أن سبب إختيارك تحقيق المزيد من الولاء ، فلا بد من إختيار القضية التي تحقق أكبر قدر من الولاء بين الآخرين » . وبذلك يكون الفرد مخلصا للولاء ذاته : إن قضية الولاء للولاء ، التى تجعل الولاء ينتشر بين الناس ، هى القضية الجديرة بالإخلاص لها . ويصبح واجب الفرد محدداً إذا ما وجد طرقاً عملية لخدمتها . ويشعر بقيمه القضية من الخير الذي يحققه فى خدمتها ، ومن الوحدة التى يشعر بها مع كل الحياة الإنسانية . وقد يتصور البعض أن قضيةالولاء للولاء ، قضية إنسانية عامة يصعب تحقيقها عمليا ، فلقد أثبتت تجارب الحياة أنه لا قيمة لعمل يخدم الإنسانية ، طالما لم يبدأ الفرد بمعرفة مجتمعه الصغير وقضاياه الخاصة . والحقيقه أن أى قضية خاصة يمكن تحويلها إلى قضية عامه ، ويمكن أن يشكل الولاء لها ، عملاً يؤدى إلى خير كلى . فطالما كانت القضايا الخاصة مبررة عقلياً من جانب الفرد المخلص لها ، فإنها تكون صورة من صور قضية الولاء للولاء (٢) .

إن الولاء عباره عن مركب من رغبات طبيعية معينة ، ومن نوع من الإذعان الإجتماعى و من إختيار عمدى للقضايا، فلكى يكون الفرد مخلصاً لقضية الولاء من أجل الولاء ، لا بد

(١) JIbid., pp. 101-107 .
(٢) JIbid., p. 115 .

أن يختار أنماط السلوك التى تتفق مع طبيعته الخاصة ، ويخدم القضايا التى تتفق مع مزاجه الطبيعى والفرص الإجتماعية . فمن جانب يختار الفرد الولاء لمن يحبهم لتحقيق مصلحته ومن الجانب الاخر ، يكون هذا الإختيار لهذه الـولاءات الطبيعية « القضايا الخاصة » متفقاً مع المبدأ العام القائل بأن مهما كانت قضيتي ، فإنها لا بد وأن تتفق مع تصور لقضيةالولاء الكلى ، ولا بد أن تشكل القضايا نسقاً واحداً ، أو قضية واحدة ، هى قضية حياة الولاء . ولذلك لا يكون هناك ولاء لمجموعة من القضايا المتباينة والمتناقضة ، فطالما أن القضية التى يخلص لها الفرد من إختياره ، وقدمها له وضعه فى النظام الإجتماعى ، فإن قدراتة الطبيعية والتبرير العقلى لها ، يجعلها تنال إعجابه ، ولن يقبل وصاية من النظام الإجتماعى أو من رغباته الخاصة . فيكون متفرداً فى ولائه مخلصاً فى عمله ، طالما أن بداخله الشخص الذي يختار قضاياه الشخصية ، من أجل نشر الولاء الكلى الذى يسمح بنمو الولاء ، وبظهور ولاءات جديدة بدون التخلى عن القديمة منها (١) . كذلك ومهما كانت محدودية أفعال الفرد ، فإنه يساهم فى الولاء الكلى ويتعلم الولاء من الآخرين ، ويعد كل مخلص لقضية وكل من يقوم وينشر الولاء بدون التأثير على ولاء الآخرين ، نموذجا يتعلم منه الناس الولاء. ويستطيع الفرد تعلم الولاء من المخلصين ، بصرف النظر عن تشابه أو إختلاف قضاياهم عن قضيته . فالولاء ينتقل « بالعدوى » فيصيب المخلص وكل من يدرك ويلاحظ إخلاصه . أن قضية الولاء للولاء » ليست قضيه نظرية مجردة ، ولا يخلص لها الفرد بوصفه مواطنا يخدم العالم ، وإنما يخلص لها بخدمة قضاياه الشخصية. فلا يقدم الولاء صيغة نظريه عندما يقول « إبحث عن قضيتك التى تهتم بها وإخدمها بكل كيانك ، وعندما تختارها وتخدمها ، فإنك تخدم الولاء من أجل الولاء ، لأن بسبب إختيارك وخدمتك ، تزيد من الولاء بين الآخرين (٢).

ومن الواضح أن فلسفة الولاء عند « رويس » جاءت عبارة عن أخلاق كانطيه فى ثوب جديد حى متطور متفاعـل مـع الواقع الإجتماعى ، فالولاء للولاء أقـرب لفلسفـة الواجـب عند « كانط » . فالأفكار الرئيسيه فى فلسفة الولاء الأخلاقية ، كالإرادة الحرة العاقله

---

(١) JIbid., pp. 116-125 .

(٢) JIbid., pp. 130-138 .

وإتصاف سلـوك الولاء بالخيرية والعمومية والإنتشار والإخلاص لقضية الولاء من أجل الولاء ، وحل مسألة الإختيار الحر، والإ لزام وإعتبار الولاء ممثل للخير الأقصى للفرد والجماعة كل ذلك ، يبدو وكأنه قد تم إستبدال كلمة « الولاء » « بالواجب » ، أو أن « رويس » قد أراد إحياء الواجب الكانطى وتطويره مستخدماً روح الجدل الهيجلى .

جـ – نظرية فى الضمير

بعد توضيح رويس لصفات السلوك القائم على الولاء للولاء ، « وقضية » الولاء الأساسية ، وصفاتها ، يقرر « رويس » أن « فلسفة الولاء » تقدم نظرية فى الضمير الأخلاقى ، يكون للضمير فيها نفس وظائف الضمير التقليدى ، ولكنها تخلص الضمير من كثير من المشكلات سواء المتعلقة بطبيعته أو بقيمته . فإذا ما تم التساؤل عن الضمير فغالبا ما تكون الإجابة بأنه أداة عقلية تخبر الفرد بصواب أو خطأ السلوك ، بأن يوافق أو لا يوافق علية ، ويقع الجزاء المناسب الذى يأخذ صورة الرضا أو التأنيب (١) . ولكن يمكن رد التساؤل عن مـاذا يـكون ضـميرى ، إلـى تساؤل أعـمق ، هـو من أنا ومن أكـون ؟ ويرى « رويس » أن بالرغم من أن الإجابة على هذا التساؤل تحتاج إلى نظرية ميتافيزيقية ، إلا أنه يمكن الإجابة بأن يعرض الفرد لحياته وأعماله أو ما يسمى بجوانب شخصيته العملية ، أو قد يجيب بعرض مثله العليا وغاياته ، وفى تلك الحالة يكون واصفاً لخطة حياته أو دوره فى الحياة . ولذلك يمكن تعريف الأنا الفردى بأنه حياة إنسانية تحيا طبقا لخطة ، وتعبر عن هدف واحد ، ولا يكون هدفا مجرداً ، فأينما تكون هناك شخصية ، تكون هناك غايات تتحقق فى الحياة . والحقيقة أنه إذا لم تكن هناك وحدة بين غايات الفرد وخططه الحياتية ، لفقدت الذات قيمتها الإنسانية وأصبح هناك مجموعة من النفوس الجزئية المتصلة بحياة كائن عضوى ، ولكن ليس بينها وحدة أو إتساق ، فإذا كان الولاء لقضية ما يحقق الوحدة لحياه مجموعة من الأفراد ، ويحدد سلوك كل فرد منهم ويجعل كل فرد ذاتا إنسانية وحياة يوحدها هدف ما ، فإن أينما يكون هناك ولاء ، يكون هناك ذاتية وشخصية وهدف فريد

---

(١) J.Royce : The Religious Aspect of Philosophy pp. 47-56

مجسد أ فى حياة . وبدون ولاء لا وحدة . والذات حياة متوحدة بهدف واحد وشكل ولاءات الفرد هذا الهدف ، وطالما لا يتحقق الولاء تظل « الأنا » غير مكتمله وتبحث عن وجودها . فالولاء هو ما يحقق للفرد الشعور والوعى الذاتى (١) .

والسؤال الذى يفرض نفسه الأن ، ما صلة هذه النظره للأنا بالضمير ؟ يجيب رويس بأن الذات المخلصة تكون عبارة عن ذات تحيا حياة معينة ، وتبحث عن مثل أعلى ، ولما كانت الحياة ليست هى المثل الأعلى ، فإنه يظل هناك فرق وتميز بينهما . ولأن الفرد يحقق مثله الأعلى من القضية التى يخلص لها ، وتكون القضية دائما أكبر من حياته الشخصية ، وتتطلب منه أفعالاً أكثر من تلك التى يكون قد أنجزها ، فلذلك إذا كان الفرد ذاتا حقه ، فإن مثله الأعلى يقف فى مواجهه حياته الفعلية . وتتحدد القيمه الخلقيه لكل فعل من أفعاله فى ضوء مثله الأعلى . لذا ينظر للقضية التى يخلص الفرد لها ولمثله الأعلى ، على أنهما يؤديان تلك الوظيفه التى غالبا ما ينسبها الأخلاقيون « للضمير » وفى فلسفة الولاء ، تكون القضية التى يخلص الفرد لها هى ضميره . وإذا ما تم تفسير القضية باعتبارها المثل الأعلى لحياة فرد ما ، فإنها تمثل ضميره ، لأنها تقدم له دائما الخطة والمثل الأعلى للحياة ، وتطلب التنسيق بين دوافعه اللحظية المتغيرة لخدمتها .

وأما بالنسبة لمشكلات الضمير التقليدى ، يرى « رويس » أن الضمير قد يصيب أو يخطأ ، مثل إختيار القضية ، فقد يكون إختياراً صائبا أو خاطئا . لأنه قد يكون هناك ولاء أعمى ، ومع ذلك يظل الضمير أفضل مرشد اخلاقى ، لأنه إذا نظر اليه من الخارج ، يمثل « قضية » الفرد ، وإذا نظر له من الداخل ، يمثل روح الذات « والمثل الأعلى » . وطالما يحيا الفرد حياة واحدة فإن الضمير هو القادر على تعليمه كيف يحيا ، وينمو بنمو الولاء ، وأما بالنسبة للمسألة القديمه الخاصه بعلاقة الوحدة بالكثرة أو كيف يكون الانسان مخلصاً للولاء ذاته ، ويكون مخلصا فى نفس الوقت للقضايا إلتى تهمه وتتفق مع طبيعته ، أو كيف يمكن لقاعدة « كن مخلصا للولاء ذاته » أن تفصل فى حالات الشك الاخلاقى التى تواجه الإنسان والتى غالبا ما تظهر عندما يكون هناك صراع ظاهرى بين الولاءات المختلفة ؟ فالحقيقة أنه

---

(١) JIbid., pp. 168 -173 .

بالرغم من أن تحقيق الإتحاد بين الواحد والكثير أمر ممكن إلا أن الفرد قد لا يستطيع تحقيق هذا الاتحاد الكامل ، وإنما يمكن أن يحقق قدراً من الوحدة تمكنه من فهم المثل الأعلى وتجعله مرشداً له . كذلك يتمتع المخلص بصفتين هما « الحسم » ، و « الوفاء » ، فعندما يواجة الفرد بقضايا متناقضة ، فإن إخلاصه لقضية الولاء للولاء يلزمه بالإختيار وعدم التردد ، حتى وأن كان جاهلاً بنتائج إختياره . فالولاء يفرض على الفرد الإختيار والالتزام بما إختاره . ولا يحق للمخلص عدم الإلتزام بالقضية إلا فى حاله إكتشاف تعارضها مع قضيه الولاء من أجل الولاء (١) .

ومن الواضح أن « رويس » ينظر للضمير نظرة براجماتية ، فلا يبحث عن أصله أو نشأته ، أو ما إذا كان فطريا أو مكتسبا إنسانياً أو إلَهياً ، وإنما ينظر له باعتباره مميزاً بين الصواب والخطأ ، ولما كانت فلسفة الولاء ، ترى أن القضية هى الموجهه للفرد ، فالضمير يصبح قضيته . أن « رويس » يحاول أن يفسر كل ما هو خلقى فى ضوء فلسفه الولاء ، وكأن الولاء يقدم حلا لكل إشكالات الفلسفة الخلقية . والواقع أنه إذا كانت قضية الفرد ضميره ، فان ذلك لا يوضح معنى الضمير أكثر من توضيحه لمعنى القضية . وإذا ما تم هدم فلسفة الولاء وأصولها ، تنهار نظرية الضمير القائمه عليها ، ولكن يبدو أن « رويس » قد أراد القضاء على أحد معاقل الفلسفة الأخلاقية التقليدية ، بتقديم نظريه جديدة فى « الضمير » تخرج الضمير من دائره الغموض . فالضمير يمثل الفكرة الثالثة أو الوسيطة التى توفق بين الواقع والمثال ، أو توضح كل منهما فى ضوء الأخر ، فالضمير تأويل يوفق بين متناقضيين ، حياة واقعية تحياها الذات بالفعل ، ومثل أعلى تسعى لتحقيقه ، فالضمير ليس ملكة عقلية فطريه راسخة يستعين بها الفرد فى أحكامه ، وإنما جدل بين الداخل والخارج ، وقد يخطأ أو يصيب .

ثانيا : ميتافيزيقا الولاء

اذا كانت حياة الولاء الأخلاقية أفضل حياة للانسان فأى حقيقة تكمن ورائها ؟ وما علاقتها بالعالم الواقعى ؟ وإذا كان الولاء خدمة لقضايا ، وتربط القضية حياة الناس فى

(١) JIbid., pp. 173 .

وحدة وحياة واحدة ، فهل هذه الوحدة أو الحياة الواحدة واقع أم مجرد وهم ؟ وإن كانت حياه الولاء تستند على إعتقاد الفرد فى واقعية القضية وخيريتهما ، فهل لهذه القضايا وجود حقيقى وتتصف بالخيرية ؟ .

أ – وحده الحياة الروحية

يؤكد « رويس » أن وجود أساس حقيقى للولاء يفترض وجودوحدة روحية تتعالى فوق مستوى أى خبرة فردية مستقلة . فاذا كان الولاء خدمة لقضايا فوق إنسانية ، وتتصف بالخيرية ، فان الخير الحقيقى لها ، لن يظهر لأى مجموعة من الافراد ، وانما يتم التعبير الكامل عن هذه الخيرية فى مستوى وعى أرقى من مستوى الوعى الفردى . فمثلها مثل القضايا الإجتماعية ، فقد يحصل كل فرد من الأفراد على نصيب منها ، ولكن لا تظهر وحدتها كاملة لأى منهم لأنها تكون فى مستوى أعلي من مستوى أى فرد معين . فإذا تم التسليم بهذا الإفتراض ، فإن الولاء لا يكون مجرد خرافة ، ويصبح خير القضايا واقعاً فى تجربه أعلى من المستوي الإنسانى. وإذا كان الولاء يحقق إتحاداً بين تاكيد الذات وإستسلامها ، فإن الفــرد يصبح واعيــاً بعلاقته بوعــى أرقى مــن وعــيه ، يستمد منه قيمته ووجوده . كذلك إذا كان خير القضية واقعاً فى خبرة أعلى ، ترى القضية على حقيقتها ، وباعتبارها وحدة حقيقية للحياة ، فإن الفرد لا يكون مخلصاً بسبب خير يستمده من الولاء ، وإنما من أُجل الخير الذى يتحقق للقضية من تلك الوحدة العليا للخبرة ، ولكن وبالرغم من ذلك يحقق الولاء له ، ما يســمى خيره الأقصى ، لأنــه يحدد لــه وضعه فــى عالم « الإرادة الجمعية » ، التى يحيا فيها ويكسب وجوده منها . والحقيقة ولئن كان المخلصون مؤمنين بأن الإرادة الجمعية موجودة ، وبأن لحياة الإنسانية وحدة واقعية حقيقية ، إلا أنه يجب إدراك وفهم تلك الحقيقة- وحده الحياة الانسانية – وذلك الواقع . ويرى« رويس » أنه لن يتم ذلك إلا إذا كانت فلسفة الولاء جزءاً من فلسفة ، تري العالم كله عبارة عن وحدة واحدة من الوعى وأنه يتكون من وحدات أقل منها (١) .

(١) J.Royce : The Philosophy of Loyalty pp.355-360

والحقيقة أن الإنسان فى سعية للحقيقة ، لا يبحث عن حقائق ونجاحات جزئية للأحداث ، وإنما يكون هادفاً للوصول إلى حقيقة أبعد وأعمق تكسب منها تلك النجاحات الجزئية قيمتها ، ولا بد من الإعتقاد فى وجود النجاح المطلق ، وبأنه ، يتحقق فى تجربة أعلى من التجربه الإنسانية ، وتتوحد فيها كل النجاحات والتجارب ، فما الضمان لوجود مثل هذا الإعتقاد أو هذا النجاح المطلق ؟ . الواقع أن الإنسان يستمد عن هذه الوحدة صوراً ولمحات جزئيه من أفكاره عن وحدةالعلم أو الفن أو المجتمع ، فإذا كانت أفكاره صحيحة ، فإن هذه الوحدة لا بد أن تكون موجودة فى خبرة أعلى من المستوى الإنسانى ويكون ولاءالإنسان للحقيقة جزءاً من هذه الوحدة العليا ، وأما إذا كانت أفكاره خاطئه ، فيعنى ذلك أن هناك جزءاً من الواقع ، إذا كان قد علم به ، لبين له هذا الزيف فى أفكاره . إذن ما يبين زيف أفكاره وجود تجربة ما أعلى من تجربته ، ولا بد أن يكون تكوين العالم واقعياً طالما أنه مجمل لوقائع الخبرة . إن هناك فكرة واحدة صحيحة على الأقل ، عند القول « بأن وقائع العالم موجودة كما هى ، وبأن العالم الواقعى يبين أخطاء الإنسان ، ويجعل الخطأ ممكناً . لأن فى مثل هذا القول ، يعتمد الفرد على وجود مجمل للخبرة ، الذى يعد الفرد جزءاً منه ، لأنه لا يكون مخطئا ، إلا عندما لا تتفق أفكاره مع الموضوع المقصود فتكون أفكاره زائفة فقط ، إذا كانت الخبرة التى يحاول الإعتماد عليها ، تحوى ضمن محتوياتها ، الموضوع الذي يخطأ فى إدراكه ، وأن الحقيقةالتى لا يستطيع الوصول اليها ، تكون ملك هذه الخبرة المجملة . لذلك أيا كان صدق أو كذب « معتقد » ما ، فإن العالم الواقعى الذي يفند أو يؤكد فكرة ما ، يكون عبارة عن مجمل الخبرة كلها . وتوجد علاقة حقيقية بين حياة الفرد العملية ، ومجمل الخيرة ، طالما كان هدفه الدخول فى وحدة مع الكون كله ، لأنه مجمل الخبرة هو الذى يقصد الفرد تعريفه وخدمته فى كل أفعاله واقواله (١) . إن مجمل الخبرة أو وحدة « مجموع الحياه » ، أو التعبير الحق عن إرادتها ، والتى يعبر عنها كل إثبات لحقيقة ما ، وكل فعل مخلص ، لا بد أن يكون شاملا وحاويا لكل وقائع الماضى والحاضر والمستقبل ، ولذلك فإنه حقيقة أبدية أزليه (٢).

---

(١) Ibid., pp. 360-365

(٢) J.Royce : The Religious Aspect of Philosopy pp. 408-24

ب – واقعية القضايا ومصداقيتها

وبعد أن أثبت « رويس » وجود وواقعية عالم الوحدات الروحية ووحدتها ، ، وأنّ لكى يكون للولاء أساس حقيقى ، لا بد من واقعية هذه الوحدة الروحية ، وأن كل تعريف للحقيقة يفترض وجودها مسبقا ، تحولت النظرية الأخلاقية إلى مذهب فلسفى عام ، ولم يصبح الولاء مجرد مرشد فى الحياة ، وإنما كشف عن علاقة الإنسان بعالم له حياة روحية أبدية واحدة ، تحوى كل الحوادث الزمنية ، وفيه تتحقق كل الأهداف العاقلة ويشكل مجموع كل ما تصبوا اليه البشرية . كما إتصف هذا العالم ، بأنه وعى قائم بذاته ، ويتحقق وجوده ويكتمل من إتحاد كل التضحيات المثالية والولاءات المخلصة . لذلك يرى « رويس » إمكانية وضع تعريف جديد للولاء فى العبارات التالية ، « فالولاء هو الرغبة فى إظهار الأبدى ، والتعبير عن الوحدة الواعية فوق الإنسانية فى نمط أفعال وأعمال ذات فردية » . ويتعبير أحد الفلاسفة (١) . يكون الولاء هو إرادة الإعتقاد فى شئ أبدى ، والتعبير عن هذا الإعتقاد فى الحياة العملية لإنسان ما . وبذلك التعريف الميتافيزيقى للولاء يكتمل التعريف الإبتدائى للولاء. ويشرح « رويس » هذا التعريف الجديد للولاء ، بأنه لا بد من الإعتراف بأن حياة الإنسان تستند على الإعتقاد فى مجموعه من الوقائع أو عالم من الوقائع ، يقع خارج نطاق التجربة الإنسانية العادية . وأن هذاالاعتقاد يتصف بالمصداقية ، مثل الإعتقاد فى وجود عقل الآخر ، وفى وجود الخبرات الماضية والمستقبلية ، بالرغم من عدم القدره على التحقق من مصداقية هذه المعتقدات فى تجربة فرد مفرد . ولئن كان التفسير التقليدى لمثل هذه المعتقدات ، يعتبر أنها قد فرضت على الإنسان ، من واقع مستقل تماماً عنه وعن إهتماماته وأفكاره ، فإن مثل هذا التفسير من الواضح تناقضه (٢) .

والحقيقة أن العالم الواقعى ليس شيئا مستقلاً عن الانسان ، وتكون محتوياته ومادته من طبيعة التجربة ، ويحقق بنائه ثباتاً وضماناً للأفعال . ومثلما تبدو طبيعته قابلة للتفسير فى حدود الأفكار والقضايا والأهداف الانسانية ، فانها تحقق فى المقابل لأفكار الإنسان

---

(١) المقصود هنا " وليم جيمس "

(٢) J.Royce : The World and The Individual p.I p.50

الجزئية ولحياته العاقله معناها وأهدافها (١) . فلا توجد حقيقة نظريه مجردة ، ولا يوجد واقع ذو طبيعة مختلفة عن التجربة ، وتكون كل حياة واعية درجة من درجات وعى فوق إنسانى ، لا يعرف العالم الواقعى فقط ، وإنما يكون هو كل العالم الواقعى . وبالتالي يكون كل بحث عن الواقع ، عبارة عن جهد لإكتشاف الكل التجريبى ، أو التجربة المجملة التى تعد التجربة الإنسانية جزءاً منها . وأى بحث عن نسق كلى للحقيقة يجمع الحقائق العملية الجزئية ، يعد بحثاً عن الحياة المثالية الواضحة ، والتى من أجلها يقوم الإنسان بأعمالة ، ولذلك أى محاولة لاكتشاف العالم الواقعى ، تعد محاولة لاكتشاف معنى الحياة الفردية ، ولن يستطيع الإنسان معرفة معنى حياته إلا فـى ضوء حياة واعية ، يكون جزءاً منـها ، ويتم التعبير الكامل عن أفكاره فيها ، ويكون متحقق فيها ، ما يكون الإنسان قد فشل فى تحقيقة (٢) . معني ذلك أن عندما يفكر فرد ما فى العالم الواقعى ، فإنه يفكر فى شىء يعتبره عالمه الخاص طالما كان هذاالعالم يشكل موضوعاً لأى فكرة من أفكاره . كما يعنى التفكير فى العالم ، تفكيراً فى كل نظام الخبرة ، التى ترتبط به خبرته الخاصة . ولما كانت معرفة كل النظام » لا تتحقق فى أى لحظة ، ويعتمد الإنسان على الذاكرة المعرضة للخطأ ، وعلى إنتظار التجربة المستقبلية ، وليس لديه وسيلة للتحقق من تجربةالأخر ، إلا بتطبيق الإختبارات الإجتماعية المعرضه للخطأ أيضا ، وعندما يعتمد على مناهج العلم التجريبى ، لا يكون لديه إلانجاحات لحظيه عملية ، فإن الانسان ما هو الا كائناً فان معرض للأخطاء ، يحاول شق طريقه فى مجاهل الخبرة .

لذلك كل محاولات التذكر والتنبؤ والإستفسارات عن الموضوعات ، تكسب قيمها حسب مكانه بوصفها أجزاء فى مشروع شامل ، يتمثل فى المحاولات النشطة التي يبذلها الفرد ، ليجد مكانه فى العالم الواقعى . إذن يستطيع الفرد معرفة وتحديد عالمه الواقعى ، بما يدركه فى حدود التجربه ، ويستطيع تحديد مكانه ، بإكتشاف موقعه فى نظام التجربة الكلى والشامل . لأن المقصود بكلمة « واقعة » ، شىء إكتشفه فرد ما ، أو يمكن اكتشافه . وما يسمى « واقعة فعلية » ، يعنى أنه شىء وجده فرد ما ، كتعبير عن إرادته أو عن غرض لديه

(١) J.Royce : The Philosophy of Layalty , pp.360-363

(٢) Ibid., p.364

إن ما يعد واقعاً ، يكون موجوداً بوصفه محتوى حاضراً لدى كائن عاقل . لذلك يكون الإستفسار عن العالم الواقعى عبارة عن سؤال عن محتويات التجربة ، سواء كانت إنسانية أو فوق إنسانية ، ويكون الإستفسار عن الواقع ، عبارة عن جهد لاكتشاف خبرة العالم وماذا تكون . وبذلك يكون الإنسان فى كل حياته الإجتماعية وعلومه ، محاولاً إكتشاف الحياة الواعية الكلية ، التى تشكل وقائع العالم محتواها . من جهة أخرى لا يستطيع الفرد البحث والإستفسار عن وقائع العالم ، دون أن يكون لديه افكاره الخاصه عنها ، فاذا كانت أفكاره صحيحة ، فانها تنجح فى الاتفاق مع وعى العالم الذى تدركه أو قد تحدده هذه الافكار . ولما كان النجاح واقعة تجريبية بدوره ، فانها ليست واقعه فى تجربه الفرد الخاصة . ولذلك ما يعتبره فرد ما نجاحاً ، فى أى لحظه من لحظات حياته ، يفترض وجود حياه واعية شامله تحوى أفكاره وجهوده ، وتحوى فى نفس الوقت كل وقائع العالم التى يفكر فيها ، وتراقب نجاحاته ، بنظره مجملة لوقائع العالم ومحاولاته لاكتشافها . وأما بالنسبة للافكار الخاطئه عن العالم أو عن أحد وقائعة ، فإن إمكانية الخطأ تتضمن نفس العلاقه بين العالم والذات ، فى حاله الأفكار الصحيحة . لأن الفرد يخطأ دائماً فى الموضوع الذى يكون قد قصد الإتفاق معه ، ويكون الفشل بسبب قصد الفرد وسعيه لغايه معينة . وبسبب إخلاصه للحقيقة الكلية للعالم . لذلك عندما يخطأ ، فإنه يفشل فى تفسير مكانته فى وعى العالم الذي يحاول معرفة حياته ، ويكون فشله بدوره واقعه أيضا فى هذا الوعى الكلى . ولما كان كل بحث عن الحقيقة ، يرتبط بالإخلاص فإن الباحثين عن الحقيقة مخلصون . وبالتالى إذا كان الفرد مخلصاً وأخطأ ، أو إعتقد خطأ أنه على صواب ، فإن الخطأ يكون واقعة فى وعى كلى ، يحوى محاولاته المخلصة للوصول إلى الحقيقة ، ويرى هزيمته فى تحقيق الاتصال بها وبالقضايا الحقيقية ، ويدرك ولائه ، ويحدد لمحاولاته الجزئية مكانها المتفرد فى مجمل حياته أو فى نسقه العالمى . لذلك يعد الفشل ، نوعاً من النجاح ، لأنه عباره عن مسعى ، يسلكه الفرد لتحديد مكانه فى وحدة الحياة الواعية للعالم . وبذلك يؤكد

« رويس » أن المخلص سواء أصاب أو أخطأ فى التفصيلات ، فإن بحثه المخلص يؤكد واقعة أنه فى وحدة مع الحياة الواعيه للعالم . وكل منكر لهذه الوحدة يؤكد إثباتها بصورة جديدة (١) . وبذلك يكون كل بحث عن الحقيقة مؤكداً لوجود وعى شامل يحوى العالم الواقعى .

وهكذا يرى « رويس » أن وجود هذه النظريه « للحقيقه » والتى ظهرت نتيجةً إستنتاج منطقى محكم ، ووضحت علاقة كل فرد بالحقيقة سواء عرف الواقع أو فشل فى معرفته وسواء أصاب أو أخطأ فى أحكامه ، تقدم إجابات كافيه لتساؤلات المخلصين ، وتبين لهم أنهم محقون فى إفتراض صدق قضاياهم الشخصية ، وصدق قضية قضاياهم « الولاء للولاء » . فلما كان الولاء خدمة لقضايا فوق إنسانية ، تتعالى عن التعبير عن نفسها فى حياة الفرد الخاصة والمحدودة ، وكان للقضايا حياة ، فإن كل الحياة الأخلاقية تكون فى وحده مع حياة فوق إنسانية ، تشمل الأفراد جميعاً ، وإذا ما أخلص الناس لقضاياهم فإنهم يحققون النجاح ، الذى يعد لمحه لهذه الوحدة الكلية للحياة . كما يؤكد « رويس » أن هذه النظرية قد جاءت إشباعاً لحاجات أخلاقية ومنطقية ، وأثبتت أن العالم الحق عالم المخلصين وأن الولاء ليس مجرد وهم أو زيف ، وقضاياه قضايا واقعية وحقيقية فى الكون وأن للكون نفس الوحدة التى يسعى إليها الولاء للولاء ليعبر عن نفسه فيها ، والتى يعبر عنها المخلصون فى أفعالهم ويسعون إليها (٢) .

ومن الواضح أن « رويس » قد وضع تعريفين للولاء ، الأول أخلاقى والثانى دينى ، الثانى مكمل للأول ، وكأن « رويس » قد قصد المزج بين الأخلاق والدين أو تأكيد الصلة بينها ، فإذا كان الولاء يعنى الرغبة فى إظهار الحقيقة الأبدية فى الأفعال ، فإن ما يكون جديراً بولاء الإنسان ، ينبغى أن يتحدد من وجهة نظر كلية ، وإذا كان الولاء يعنى الإخلاص الإرادى من قبل فرد ما لقضية ما ، فإن القضية المثلى فى تلك الحالة ، والتى يتحقق فيها كلا التعريفين تكون « قضية دينية » ، أولها صبغة دينية ، فهى القادرة على تأكيد الذات من جهة ، وإنكارها فى نفس الوقت ودمجها فى ذات أعلى منها من جهة أخرى. وبذلك تصبح فلسفة الولاء ما هى إلا فلسفة دينية .

---

(١) Ibid ., p. 372.

(٢) Ibid ., p.376.

ثالثا : من المحبة الى الولاء

أ – الحب فى تعاليم « السيد »

إتجه « رويس » لتطبيق فلسفتة فى الولاء ، والإستعـــانه بها ، لشرح وتفسير معنـى « المحبة » فى المسيحية ، فيرى « رويس » أن الحب باعتباره من أسس العقيدة المسيحية ، قد ظهر فى تعاليم وأقوال السيد متصفاً بصفتين ، الأولى أنه قد ظهر فى الأفعـــال ومـــوعظة « الجبل » مؤكداً على السلوك العملى والبطولى والإيجابى تجاه الحياة ، والصفة الثانية أن مسائل تطبيقه فى الحياة العملية ، قد تركت غامضة وغير واضحة ، فجاءت الصفة الثانية متعارضة مع الأولى وأصبح الإتجاه العملى والإيجابى للحب متضاربا ومتعارضا . ولئن كان « السيد » قد ترك عمداً تلك المسائل التطبيقية بدون حل وغامضة ، حتى يظلُ باب الإجتهاد مفتوحاً ، إلا أن الإجتهادات التى أضافها المفسرون فيما بعد ، قد جاءت بعيدة ومنفصلة عن المقاصد الحقيقية « للسيد » . والحقيقة وبصرف النظر عن مسألة إتفاق أو إختلاف تلك الإجتهادات مع مقاصد « السيد » ، إلا أنها أصبحت تشكل مساهمة أساسية فى العقيدة المسيحية . وإذا كانت تعاليم « السيد » ، تمثل بدايةً للعقيدة ، فإن الإجتهادات والتفسيرات وبالأخص تفسيرات « بولس » ، تمثل تكملة ضرورية لها . ولئن كان « بولس » قد أعلن أن الحلول والتفسيرات التى قد جاء بها ، لمذهب الحب المسيحى ، لم تكن من إبتكاره الشخصى ، وإنما مصدرها « روح السيد » المرفوع فإن ما يمثل أهمية ، أن هذه التفسيرات البولسية ، كانت ذا تأثير على معنى وتطور الفكر المسيحى (١) .

ومن الملاحظ بالنسبة للصفة الأولى للحب المسيحى ، أن هناك تفسيرين رئيسيين له ، يوحد الأول منهما بين الحب ونكران الذات والغيرية ، ويربط الثانى منهما بينه وبين السلوك البطولى والإيجابى . أعتبر أصحاب التفسير الأول ، أن المقصود من « إدارة الخد » ، يتمثل فى المثل الأعلى القائل ، عش من أجل الأخرين ، وعدم مقاومة الشر ، وهجر متع

---

(١) J.Royce : The Problem of Christianity , P.I p.78.

الحياة ، أى يعنى التضحية ونكران الذات . أما التفسير الثانى ، فيعارض الأول ، ويبين أن الحب كما جاء فى تعاليم السيد والأمثال ، لا يعنى نكران الذات أو غيرية مطلقة ، بقدر ما يعنى البطولة والإيجابية . والواقع أن هذا التفسير الإيجابى للحب المسيحى ، يتفق مع روح التعاليم والأمثال . فإذا كان من واجب الفرد حب الجار ، لأن الله يحب كل فرد ، فمعنى ذلك إن لكل فرد قيمته ، على الرغم من كونها مستمدة من الله ، ومن محبة الله له . لذلك لا يعد نكران الذات فضيلة أساسية فى المسيحية ، ولا يبتهج « المسيح » بنكران الفرد لذاته ، وإنما يدعو كل فرد للإستمتاع بالحب الإلّهى ، وينشره بين الآخرين . ولئن كانت رواية « الإنجيل » ، عن العبد الذي لا يصفح عن إخوانه بالرغم من تمتعه بالعفو الألهى ومحبة الله ، تبين كيف يفقد الحب قيمته ، إذا ما أنفصل عن القول بالمساواة بين الكل ، فى الحب الألهى ، إلا أن قصة « الإنجيل » عن الموهوبين ، تبين بوضوح كيف أن الحب الإلّهى ، يطالب الفرد بأن يجد التعبير المناسب والإيجابى عن قيمته الفردية ، حتي يعود إلى الله رابحاً . لذلك لا يمكن أن يكون الحب مجرد تعبير عن نكران الذات أو الغيرية بالقول « بأنى لا شىء » ، والأخرون لهم حق النجاه والخلاص ، لأن الله يحبنى ، ويطالبنى بأن أكون شيئاً . كذلك لا يمكن أن يكون مجرد تسامح عن الأخطاء البشرية . ولئن كان المحب كما صوره « السيد » يجب ألا يقاوم الشر ويدير الخد ، إلا أنه يفعل ذلك ، من الثقة بأن الله يرى الكل ، وينصر عبده ولما كان المحب يتوقع ، النصر النهائى للخير ، فإن حبه ، يعد مساهمة إيجابية فى النصر النهائى لإرادة الله ، إن عدم مقاومة الشر ، تكون إحتقاراً لقوى الشر ، وما يشعر به المحب من شفقة ورثاء ، يعد مساهمة فى النصر الألهى (١) .

وأما عن الصفقة الثانية لمذهب الحب المسيحى كما ورد فى تعاليم السيد ، فقد لا تعد صفة ، بقدر ما تعد إشكالية عامة تتعلق دائما بمسألة العلاقة بين النظر والعمل ، أو بين المثل الأعلى ، وبين ترجمته إلى قواعد سلوكية محددة . فلقد ترك السيد أقواله عن الحب دون ترجمة عملية لها ، أو صبهما فى قوالب سلوكية معينة ، الأمر الذى أدى إلى ظهور مشاكل عديدة ، وإلى وجود مسائل عديدة ظلت معلقة دون حل . خاصة عند التساؤل عن

---

(١) Ibid. p. 80.

السلوك الواجب إتباعه من جانب المحب تجاه المحبوب . فلا يرتبط الحب بالشعور الباطنى للمحب فقط ، وإنما يتصل أيضا بالخدمات والواجبات التى يحب القيام بها تجاه المحبوب . ولما كان المسيح قد حدد الله والجار كموضوعين للحب ، فإن السؤال أصبح يدور حول الأعمال التى يجب أن يقوم بها المحب ، للتعبير عن حبه لهذين الموضوعين .

ويرى « رويس » أن ربما تكون الإجابة واضحة بالنسبة لحب الله ، فلقد حددتها العقيدة ، بنقاء سريرة المحب والولاء الكامل له ، والثقة والخضوع التام للإرادة الالهية . أما مسألة حب الجار ، فلقد تركها « السيد » غير محددة ، ويمكن حلها بالإعتماد على روح المحبة ، وما يتفق مع التعاليم بوجه عام . فيصبح واجب الفرد ، إتباع جميع الوسائل المناسبة ، التى تساعد الجار على محبة الاخرين ، فواجب المحب الأول توسيع « مملكة السماء » وتعليم المحبة ونشرها ، وبذلك تصبح محبة الجار واضحة ولا تمثل إشكالية . ولكن وبالرغم من صحة هذا التفسير ، يظل هناك جانب يمثل إشكالية تتعلق بالسلوك العملى الخير ، وبمسألة الحياة الخيرة بصورة عامة . فلقدترك السيد للمحب إتخاذ القرارات العملية فى مسألة نوع الفعل الخير ، ولئن كان المسيح قد أكد على ضرورة إعتماد هذه القرارات على القلب دون العقل ، إلا أنه لم يضع أى قواعد للاصلاح الإجتماعى ، وأن كان قد عرض بعض الشروط المحددة لحياة المحبة ، إلا إنها لا تعد شروطاً كافية . لذلك تمثل الحب فى تحقيق حاجات الجار من الطعام والكساء ، ولما كانت الحياة ليست قاصرة على الطعام والكساء ، فإن اشباعهما ، لا يحقق للجار كل حاجاته الضرورية . فلئن جاء الحب موحداً « روح المحب » بالإرادة الآلهية ، إلا أن وسائل التعبير عنه ، تجاه الجار جاءت محيرة . فالجار كائن غامض ، ولا يعرف الفرد خير جاره او ما يسعده (١) .

ب – الحب المسيحى عند « بولس »

واما بالنسبة لأقوال « بولس » فى المحبة ، فلقد جاءت متفقة مع أقوال السيد وروحها العامة ، ولكن صحبها دخول كائن جديد له نوع من الوجود الموضوعى والواقعى . فإن

(١) Ibid.,p . 91.

كانت التعاليم تتعامل مع موضوعين للحب الالهى ، هما « الله والإنسان » ، فلقد أضاف « بولس » لهذين الكائنين كائنا ثالثا ذا طبيعة مشتركة . وإعتبر « السر» طبيعته وإستخدم عبارات مجازيه للتعبير عنه ، فالكائن الجديد ، كائن مشترك ، « جسد المسيح » ، أو الجسد الذى يمثل « المسيح » المرفوع رأسه ، وهذا الكائن المشترك هو المجتمع المسيحى ذاته . وبالرغم من إن وجود هذا الكائن ، وظهور فكرة المجتمع ، قد شكلاً بداية تجديدة فى العقيده المسيحية ، وأصبحا من الحقائق المألوفه ، إلا أن دارسي المسيحية ، تجاهلوا هذا التحول الخطير ، الذى أحدثه وجود هذا الكائن فى صيغة الحب المسيحى عند « بولس » . فالحقيقة أن وجود هذا الكائن المتحد مع الواقع بصورة ما ، جعل مذهب الحب عند « بولس » أكثر واقعية وحركه عنه كما جاء فى « الأمثال » . وبالرغم من لجوء « بولس » إلى الصور المجازية ، إلا إنها قد قدمت شرحاً ووضوحاً لمذهب المحبة ، ساعد علي تحقيق صلة مباشرة بين مجتمع المؤمنين وحياتهم الدينيه (١). إعتبر « بولس » الكائن المشترك ، سر المجتمع المسيحى ، وأنه أكثر واقعية من الجار الفرد ، وإعتقد بمعرفته من وحى أوحى به له روح السيد . والحقيقة أن حقيقة هذا الكائن المشترك ، تعبير من أهم الحقائق الدينية والأخلاقية ، فلقد وحدت « المجتمع » بهدف روحى إيجابى نشيط ، وجعلته كائنا أكثر واقعية ، وأقل غموضاً من فكرة الفرد أو الجار ، وقادراً على محبه أعضائه ، وعلى أن يكون موضوعاً لمحبتهم . وبالرغم من جدة فكرة المجتمع المسيحى أو الكائن المشترك ، فى تجربة « بولس » الدينية فنظر لأصل المجتمع كنوع من الإعجاز ، وجعل بدايته وحياته اليومية مرتبطة بروح « السيد » المرفوع والمبعوث وعد الكنيسة سراً ، إلا أن مذهبة فى المجتمع جاء عملياً وواقعياً وواضحا ، بصورة جعلتة قادراً علي تصور مذهب الحب المسيحى ، تصوراً عملياً نشيطاً إيجابيا بطولياً ومفسراً لكثير من المسائل ، التى تركتها التعاليم غامضة (٢) . وأصبح الجار عضواً فى المجتمع المسيحى ، ولما كان هذا المجتمع واقعياً ومرئياً وموجهاً بروح « السيد » ، فإن كل كلمة عن حب الجار عند « بولس » ، تصبح ذا معنى إنسانى مباشر ، وملهمة بروح الهية تجاه حب الجار ، فحب المجتمع حب الجار . ولئن إعتبرت الأمثال حب الله للجار ، برهاناً على القيمة اللامحدودة للفرد ، فإن « بولس » قد وجد فى حب المسيح للكنيسة ، دليلاً

---

(١) Ibid ., p. 92.

(٢) Ibid ., p. 95.

على أن كلاً من المجتمع ، والعضو الفرد ، موضوعان لعناية آلهية لا محدودة ، توحد وتربط بينهما ، فيتحقق للفرد خلاصة فى التوحد والوحدة مع الكنيسة ، ولا حياة له بدون الروح الآلهى والمجتمع . وبذلك يأخذ الحب المسيحى عند « بولس » صورة الولاء (١) .

ويشرح « رويس » تأويل المحبة بالولاء ، بأن الولاء قد ظهر فى التاريخ قبل ظهور المسيحية وكان منتشراً بين الشعوب التى تؤمن بضرورة حب الفرد لمجتمعه والتضحية من أجله . ولذلك عد الولاء فضيلة . كذلك لما كان من طبيعة الولاء الانتشار ، ويميل المخلص إلى توسيع ذاته ومجتمعة ، فإنه أدى إلى زيادة الاتصال بين أجزاء العالم ، بل وإستطاع الرواقيون تصور المجتمع العالمى الذي يضم الإنسانية . وبالرغم من أن مفهوم الولاء كان مفهوما نظرياً مجرداً ، إلا أن روح الولاء لم تكن بعيدة عن روح الدين ، ويميل كما يميل الدين إلي أن تجعل العالم الاخلاقى ، عالماً ذات وحدة إلهية . فكان الولاء قبل ظهور الفضائل المسيحية منبعاً للفضائل لدى الأمم المتحاربة ، وأمدها بالمثل العليا للبطولة ، وبأنبل التصورات عن مصير الفرد . ولئن كان الولاء فى تلك المراحل التاريخية الأولى ، ما هو إلا تعبيراً عن إشباع الفرد لحاجاته الضرورية ، أو المقصود به الولاء للأسرة الكبيرة ، إلا أنه كانت له مكانته الأخلاقية والروحية (٢) . ويؤكد « رويس » أن الولاء قد ظهر في تعاليـــم « بولس » فى صور عديدة . فلقد أنشأ حياة جديدة ، بظهور مجتمع يحتك أفراده فى حياتهم العمليةاليومية ، بالروح الإلّهية ، فتحافظ على صلتها بالفضائل العسكرية ، وتتصف بالنشاط والبطولة . ويستمد الفرد سعادتة من الصور المجازية ، وعد الولاء فضيلة يتصف به كل محب للنظام ، ومحترم للقانون والسلطة . وعند تفسير « بولس » لأقوال السيد ، ظهر الولاء بوصفة محققاً لتعاليم السيد عن المحبة . لأن فى نظر « بولس » يوحد الولاء بين كل الصفات الإجتماعية النضالية وبين الحب الأخوى . فلقد كان الحب للفرد الإنسانى ، والولاء المجتمع الإلّهى لكل المؤمنين فى نظر بولس كلاً واحـداً ، ويفسر كل منـهما الآخـر(٣). وبذلك يصبح الحـب عند « بولس » حباً للجار وإخلاصاً للمجتمع فى أن واحد . ولا ينفصل أحدهما عن الآخر . فلا يتحقق الولاء للمجتمع ، إلا بمحبة الاخر ، ولا تتحقق محبة الآخر

---

(١) Ibid ., p. 89.

(٢) Ibid ., p. 99.

(٣) Ibid ., p .101.

إلا من الأخلاص لجماعة المؤمنين . فاذا تنـافس « الكورنثيون » وتخاصمـوا ، يحدثهـم « بولس » عن جسد المسيح ، والوحدة الروحية لأفـراد مجتمعه . من جهة أخرى ، عندما كان يفسر ويشرح الولاء للكنيسة ، كان يصور كرامة المجتمع الروحي ، فى ضوء جمال ورقة المحبة الأخوية . فيطالب بتحقيق المحبة بين الإخوة بالولاء لجسد المسيح أو مجتمع المؤمنين ، وعندتفسير الولاء للكنيسة ، يجعل كرامة المجتمع ووحدته مستمدة من الحب الأخوى . إن سر قوة « بولس » التبشيرية يكمن فى التوحيد الكامل بين الإخلاص للمجتمع والمحبة والإعجاب بالأفراد . يتحدث في بداية الرسائل عن الولاء لجسد وروح المسيح أو مجتمع المؤمنين ، ويتحدث فى ختامها عن الأعضاء الأفراد وعن إهتماماتهم الشخصية فجمع بين الميتافيزيقاً والواقع ، وبين الصور المجازية عن جسد وروح المسيح والإهتمامات العملية للأفراد ، فالولاء والمحبة صنوان لمذهب الحب عن « بولس » .

وأما بالنسبة لسلوك الفرد تجاه جاره ، فان بولس لم يقدم إجابه فى أى مناسبة بها إشارة لعلاقة الجار بالمجتمع . إذ كان يتحدث عن الجار باعتباره عضواً فى مجتمع ، ولذلك إعتبار إجاباته عباره عن نصائح واقعية عملية ، ومحددة طبقاً لكل حالة فردية . ولأن المجتمع كما صوره « بولس » ، مجتمع الكنيسة الصغير ، الذى يتحقق فيه الإتصال المباشر بين أفراده ، ويتحقق الإنسجام بينهم من خلال نظم محددة ، فإنه لم يلتفت للخلافات التى تنشأ بين أفرادة . وبسبب الحياة الإجتماعية لكل الأفراد ، أصبحت الحاجات المادية والأعمال وسعادة الأفراد ، وقائع عملية للخبرة المشتركه للكنيسة ، فإكتسب مذهب « بولس » فى المحبة ، صفة الثبات والإستمرارية ، وتطبيقات عملية واقعية فى حياة المؤمنين . وأصبح المثل الأعلي ، الذى قالت به الأمثال حياة مرئية واقعية معاشه على الأرض . وباتت نصائح المحبة هى « عيشوا معاً فى الكنيسة ، لكى تستحق الكنيسة حب المسيح ، وساعد الجار على أن يصبح عضواً صالحاً فى الكنيسة » (١) .

---

(١) Ibid ., p. 103.

والحقيقة أنه بالرغم من إتساق تفسير الحب المسيحي عند « بولس » بالولاء ، مع روح المجتمع المسيحى الأول ، ومساهمة هذا التفسير فى توضيح مذهب المحبة الذى تركه السيد غامضاً ، إلا أن « رويس » لم يوضح سبب تأثر « بولس » بفكرة الولاء للمجتمع المؤمن . فلقد تناول الفكرة من خلال رسائل « بولس » ، دون تفسير لأصلها النفسى وجذورها عند « بولس » ، لم يتساءل عن مدى أصالة فكرة الولاء للمجتمع فى العقيده المسيحية ، بمعنى هل جاء إهتمام « بولس » بالولاء نابعاً من صلب العقيدة المسيحية أم جاء هذا الإهتمام بسبب عوامل أخرى ؟ فلقد كان « بولس » قبل تحوله الى المسيحية منتميا لليهودية ، ومؤمناً بفكرة إنتصار الله فى المجتمع ، الأمر الذى يمكن تفسيره بأن « بولس » قد قصد المزج بين الفكر اليهودى والدين الجديد ، أو أنه لم يستطع التخلص من تراثه النفسى السابق على تحوله للمسيحية ، فجاء بفكرة الولاء للمجتمع ويررها بفكرة الكائن الثالث .

ومن الواضح أن « رويس » لم يتبع منهجاً نقدياً مع النصوص التى إعتمد عليها ، فلم يبحث عن أصلها التاريخي ، كما يفعل المفسرون للأديان ، ولم يتحقق من صحة القصص الدينية التى إعتمد عليها ، وإكتفى بأن عد أقوال « بولس » ورسائله ، ميراثا ثابتاً للعقيدة المسيحية . لذلك لم يأخذ موقف الناقد التاريخى كما فعل « فولتير » بالنسبة للمسيحية ، أو « إسبينوزا » بالنسبة لليهودية وإنما اكتفى بان اعتبر النصوص المتعارف عليها ، تمثل صلب العقيدة وجوهر الدين . ولأن أمكن تبرير ذلك الموقف ، بأنه إعتمد على « روح النص » ، بدلاً من الإعتماد على « الحرف » ، أو على المضمون دون الشكل ، والباطن دون الظاهر إلا أن هذا الموقف كان يعد موقفاً صحيحاً ، لو أن « رويس » لم يستعن بنصوص مباشرة من رسائل « بولس » أو من الكتاب المقدس ، ففى تأويله للحب المسيحى ، من الواضح إعتماده على « الإنجيل » فى عرض مذهب الحب عند « السيد » ، وإعتماده على « رسائل بولس » ، وتحديد أرقام صفحاتها ، وأحيانا ينهي تأويله ، بعبارات من الكتاب المقدس أو من الرسائل ، الأمر الذي يجعل للنص دوراً اساسياً ، ويجعل الشكل مكملا للمضمون . وكذلك يمكن القول أن تعامل « رويس » مع مذهب الحب عند

« بولس » ، كان براجماتيا ، فلم تتم مناقشة الأساس الميتافيزيقى لمـــذهب المحـــبة عند « بولس » ، أو تحليل مدي صلابة فكرة « الكائن الثالث » ، أو القاء الضوء على المشكلات اللاهوتية التى أثارتها تلك الفكرة فى الفكر المسيحى ، فكان « رويس » لا يبحث عـن أصـل الفكرة ومـدي صلاحيتها ، وإنمـا تم الإكتفاء بأنـها فكرة ، تؤدى إلى ترجمـة المحبة عنـد بولس إلـى الولاء وكأن وجـود « الكائن الثالث » ضرورة مـنطقية أو أخلاقية .

إن تأويل الحب المسيحى فى ضوء فلسفة للولاء ، أمر يجعل الفكر قائداً للنص ، ففلسفة الولاء هى المصب النهائى الذي يجب ان تفسر فى ضوئها تعاليم السيد ورسائل « بولس » ولذا لا يعد ذلك تفسيراً للدين أو للوحى بقدر ما يجعل الدين مؤيداً للفلسفة ، وكأن الفكر أسبق من الوحى ، ويجب أن يفسر الوحى فى ضوئه . ولذا يمكن القول بأن الهدف من التأويل هدف فلسفى ، بمعنى أن تأويل الحب بالولاء ، لا يعد شرحاً للدين بقدر ما يحول القضية ، إلى فلسفة إجتماعية . وإن كان « الحب » جوهر المسيحية ، « ومملكة السماء » هى المجتمع ، فإن تأويل الحب بالولاء يتفق مع فكر « رويس » العام . فإذا كان المجتمع محور فلسفته ، فإن الولاء أنسب فضيلة لحل إشكالية الوحدة والكثرة ، والإرادة الفردية والإرادة الجمعية ، من جهة أخرى يمكن إعتبار الهدف من التأويل هدفاً دينياً ، فربما قصد « رويس » حل إشكالية الحب المسيحى وترجمته إلى فضائل عملية ، وبذلك ينزل الحب من السماء إلى الارض ، ويشعر الفرد بقيمة الحب المسيحي وفائدتة فى الحياة العملية ، فيتم بعث الروح المسيحية من جديد ، وتخرج من عزلتها ، وتصبح دينا عملياً ، يشعر به الفرد فى حياته اليومية . والحقيقة فلئن صح هذا الدفاع عن المسيحية ، إلا إنه دفاع يفرغ المسيحية من محتواها الوجدانى ويحول الحب من عاطفة دينية ، إلى نوع من الإلتزام الإجتماعى ، فالولاء فى جوهره إلتزام إجتماعي ، يفرض واجبات معينة على الفرد تجاه المجتمع ، ولئن كان للولاء جانبه الذاتى ، فالفرد يعجب بالقضية التى يختارها (١) ، إلا أن كلمة الولاء نو مضمون إجتماعي ، يغلب علية الطابع الإجتماعى الإلزامى اكثر من الحماس العاطفى والرغبة الذاتية ، بل ويمكن القول بأن الالزام أو الولاء بصورة عامه ما هو إلا صورة أخرى

(١) J.Royce : The Philosophy of Loyalty (1908), The Macmillan Company , New York, 1930 . p. 15 .

« للقانون » او للشريعة اليهودية · فهل الهدف من التأويل للحب دينى أم خلقى ؟ ·

والحقيقة أنه يمكن إعتبار فلسفة الولاء بصورة عامة ، عبارة عن بحث عن أصل الواجب الكانطى ، أو محاولة لرد الواجب الكانطى إلى أصل « هيجلى » فيوضح الولاء للفرد واجبه ، وما ينبغي عليه سلوكه ، ويوحد بين الإرادة الذاتية والإرادة الجمعية ، أو بين تأكيد الذات وإستسلامها ، أو بين الداخل والخارج · ويعتبر سلوك الولاء ، السلوك الموحد ، والحل الأمثل للتعارض بين موقفين متباينين ومتباعدين ، أو حل لموقف أخلاقى محير يواجه الفرد ، فعندما لا يجد حلاً لهذا الموقف فى خبراته السابقة ، أو فيما يكون قد تلقاه من تدريب إجتماعي ، يلجأ للخارج لإكتساب الخبرة والنصيحة ، ثم يرتد إلى ذاته مرة أخرى ، ليخرج بحل موقفه الأخلاقى المحير(١)· وبذلك ينتج سلوك الولاء من مارسة الفرد للجدل ، من الداخل إلى الخارج ، ثم إلى الداخل مرة أخرى ، ويصبح سلوك الولاء عبارة عن مركب جديد ، فتراث الفرد يقترح حلاً ، ونصائح الآخرين تقدم حلاً آخر ، ثم يرتد الفرد إلى الذات ، ويستطيع معرفة واجبه الذى يمثل خيره الأقصى وخير الآخرين · وإذا كان الولاء أصل الواجب ، فأصل الولاء التناقض ، أو ينتج من إرادتين العامه والخاصة ، أو من موقفين متعارضين ، وبذلك يصبح الواجب الكانطي ، هيجلى المنبع ويكتسب حركة جدلية ، وصبغة عملية واقعية ، ويفقد صرامته وجموده ، ولئن كان يرتد إلى الذات العاقلة فى النهاية ، وينبع منها ، إلا أنه يكون قد حوى فى باطنه المواقف والفرص الإجتماعية المتغيرة · أو كأن الإرادة الجمعية ، تمثل الجانب السالب ، أو تعد مرحلة من مراحل بناء الواجب وتتخلص الإخلاق الكانطية من الذاتية البحتة وبذلك تعتبر فلسفة الولاء ، وقضية الولاء للولاء ، تطويراً لمبدأ الواجب عن كانط ومده بمنهج هيجلى ، أو قد تعتبر محاولة للتوفيق بين « كانط وهيجل » · الحقيقة سواء كانت فلسفة الولاء حلا لمشكلة كانطية ، أو توفيقا بين كانط وهيجل فأن كلا الامرين يتسقان مع الاتجاه العام لفلسفه « رويس » ·

---

(١) Ibid ., p.p . 38 - 42.

وإذا كانت قواعد الواجب عند كانط تتصف بالعمومية والتجريد والمعقولية والإنسانية [1] فإن سلوك الولاء يكتسب نفس الصفات ، فالقضية التى يخلص لها الفرد ، قضية إجتماعية ، يقدمها المجتمع ويشارك فيها الآخرون ، وتوحد سلوكهم ، ويساعد المخلص الآخرين لتحقيق ولائهم وبالتالى خيرهم . ولقد جاء معيار التمييز بين القضايا الصالحة المستحقه للولاء ، والقضايا الفاسدة معياراً « كانطياً » ، فإذا كان من قواعد الواجب عند « كانط » ، « إفعل بحيث تعامل الآخرين كغايه وليس كوسيلة [2] » ، وكانت القضية الفاسدة هى ما تحطم ولاء وخير الآخرين ، فالقضية الخيرة والمستحقة للولاء ، هى تلك التى تسعى لخير الآخرين وتنظر لهم كغاية . كما تظهر قاعدة التجريد الكانطية للواجب [3] ، فى إعتبار القضية العامة والمستحقة للولاء ، هى قضية الولاء للولاء ، وتظهر قاعدة التعميم فى مساعدة الآخرين على تحقيق خيرهم الاقصى ، كخاصية مميزة لسلوك الولاء ، فالولاء الحق يحقق صالح الكل . من جهة أخري وبالرغم من التشابه الواضح بين سلوك الولاء والسلوك القائم على مبدأ الواجب الكانطى ، إلا أن سلوك الولاء تغلب عليه الصبغة الإجتماعية وتحتل الإرادة الجمعية مساحة أكبر فى السلوك ، فيقترب من الحياة العملية التي غالبا ما تهمل فى الأخلاق الكانطية ، فسلوك الولاء لا يعتمد على العقل فقط ، أو على المنهج الإستدلالى الفعلى ، وإن كان التبرير العقلى للقضية المستحقه للولاء ضرورياً ، ولا ينبع من الطبيعة العاقلة فى الإنسان فقط ، أو من الذات فقط ، وإن كان لا بد من إتفاق القضية المستحقة للولاء ، مع طبيعة الإنسان ، وأن تحظى باعجاب الفرد بها . ولا ينتج سلوك الولاء من مجرد تطبيق مجموعة من القواعد العقلية الجامدة ، وقياس الفعل عليها ، وإن كان يعتمد على معيار للتمييز بين القضايا الخيرة والشريرة . إن سلوك الولاء عند « رويس » ، يقوم على العلاقة الجدلية بين الذات والمجتمع وبين الإختيار والإذعان . فإذا كان التوحد عند « كانط » يتم من خلال مبادىء العقل ، ومبدأ عدم التناقض ، أو الطبيعة العاقلة عموما ، فالتوحد فى فلسفة الولاء يتم من خلال السلوك التوافقى ، الذى يحقق ذاتيه

---

(١) إمانويل كانط : تأسيس مستافيزيقا الأخلاق ، ترجمة د. عبد الغفار مكاوى ، الدار القومية للنشر ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٤٤ - ٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٧١ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٣ .

وحرية إختيار الفرد ، وفى نفس الوقت توافقه مع الجماعة والإنسانية عموماً ، والإذعان للإرادة الجمعية . بذلك تحل مشكله الحرية الأخلاقية ، ولا يصبح حلاً ذاتيا أو عقليا ، وإنما حلاً عمليا ، يجمع بين الداخل والخارج .

والحقيقة أن فلسفة الولاء ، تعتبر الواجب الأخلاقي عملية جدلية مستمرة أو حواراً مستمراً بين الداخل والخارج ، فلا تطالب الفرد بالإلتزام بتراث ثابت من المبادىء والقواعد الأخلاقية ، وتطلب من الفرد محاكاتها ، كما تفعل الأخلاق التقليدية ، وإنما تضع فى إعتبارها الظروف الإجتماعية المتغيره ، فلا تجعل الفرد مسجونا فى زنزانة العقل ، أو التراث أو الدين ، فهى فلسفة حية متطورة ، تتلون بتلون الظروف الإجتماعية والمواقف المستجدة ، تأخذ بنصيحة الآخرين ، وإستشاراتهم ، ولا تلتزم بها ، أو تردها كما هى ، وإنما تدخل فى حوار معها ، فيتفاعل الرأى الآخر مع الذات ، والعام مع الخاص ويظهر سلوك جديد أقرب الى الابداع . فسلوك الولاء يتصف بالأصلالة والخبرة ، يجمع الماضى بالحاضر، والقديم بالجديد ، ولا يعني إتصاف فلسفة الولاء بالتطور هدماً للقيم الأخلاقية القديمة ، أو وصفها بأنها أخلاق نفعية ، تتعامل مع الواقع والنتائج كما يفعل الإتجاه الغائى فى الأخلاق ، وإنما هى فلسفة تقف وسطاً بين إتجاة البواعث والإتجاه الغائى فى الأخلاق ، فهى فلسفة إن كانت جذورها فى الماضى وفروعها فى الحاضر ، فثمارها فى المستقبل .

وأما بالنسبة لنظرة فلسفة الولاء « للضمير » ، فإنها لا تختلف كثيراً عن النظرة التقليدية والشائعة للضمير بجوانبه الثلاث الإدراكى والنفسى والإجتماعى . وإن كان ربط ضمير الفرد بالقضية يحقق الغلبة للجانب الإجتماعي على الجوانب الأخرى للضمير . كذلك من الواضح أن « رويس » لم يناقش مسألة نشأة الضمير وتحديد ما إذا كان فطرياً أم مكتسبا ، وإهتم بنتائجه فمن خالف ضميره خان قضيته ومجتمعه وفقد وحدته الذاتية وأصبح مجرد مجموعة من الأفكار والرغبات (١). أى أنه درس الضمير من حيث وظائفه . كذلك إذا كان لكل فرد ضميره وقضيته التى يخلص لها ألا يؤدى ذلك إلى القول بنسبية الأخلاق ، وكيف تتفق هذه النسبية مع المثالية المطلقة التي ينتمى رويس اليها ؟ حقيقة أن « رويس » قال بقضية « الولاء للولاء » ، إلا أنه أعطى فى نفس الوقت للفرد حق الإختيار .

---

(١) J.Royce : The Philosophy of Loyalty,pp.165-167

وان لكل ضميرة وقضيته ، الامر الذي يؤدى إما إلى النسبية أو المثالية الذاتية ، « ورويس » لا ينتمى لأى منهما .

إذا كان الولاء لقضية ما ، يبدأ بالاعجاب بها ، وقد لا يعرف الفرد صلاحها أو فسادها إلا بعد خدمتها(١) . فالسؤال الذى يفرض نفسه ، ما الذى يؤدى إلى الإعجاب بقضية ما ؟ الحقيقة أن الإعتماد على إنفعال الإعجاب ، يجعل الإنفعال أساس الأخلاق ، وبذلك يقترب موقف « رويس » من « برجسون » فى عده الإنفعال مصدراً للاخلاق (٢) . فبداية الولاء حب وإعجاب بالقضية .كذلك إذا وقع الفرد فى حيرة الإختيار بين قضيتين لعدم معرفته بالنتائج فإن مبدأ الولاء للولاء يلزمه بالإختيار وعدم التردد ، الأمر الذى يدفع الفرد للإختيار ، معتمداً على حسه الخلقى أو وجدانه ، وبذلك يصبح الولاء نوعاً من الحماس العاطفى وليس قائما على فهم وإدراك ووعى . وإذا ماكتشف الفرد فساد القضية ، لتعارضها مع قضية الولاء للولاء ، وتأثيرها على ولاءات الآخرين ، فلا بد من التوقف عن الإخلاص لها(٣) . وكأن « الولاء الأعمى » أحد مراحل الولاء الصحيح ، والتجربة هى المحك الرئيسى لصحة أو فساد القضية ، وأخلاق الوجدان تظل أخلاقاً ناقصة إلى أن تؤيدها التجربة المعاشة . ولئن كان « رويس » يرد قيمة القضايا الخاسرة ، لدلالتها على وجود الحقيقة الكلية ، فوجود القضية الخاسرة دليل على جود القضية الكلية الولاء للولاء ، وينتقل من المنطق إلى الأخلاق ، إلا أن القضايا الفاسدة أو تلك التى يتم إختيارها بالاستناد إلى العاطفة دون العقل ، لعدم معرفة نتائجها ، لا تمثل خطأ صورياً ، وإنما تمثل خطأً حياتيا وإجتماعيا ، وكم من نتائج إجتماعية قد تترتب على قضية فاسدة ، وكم من قضية كانت سببا فى الإنهيار الإجتماعى ، وفى إندلاع الحروب ، بسبب « الولاء الأعمى » لها والذى أعده « رويس » مرحلة من مراحل الولاء الصحيح . حقيقة قال « رويس » بمعاناة الفرد وشعوره بالحزن ، نتيجة إكتشاف فساد القضية إلتى يخلص لها ، إلا أنه لم يوضح ضرر القضايا الفاسدة للمجتمع ، وبذلك تظل الأخلاق فى جوهرها ذاتية وإن كانت فى ظاهرها إجتماعية .

(١) Ibid ., p.168.

(٢) برجسون : منبعا الاخلاق والدين ، ترجمه سامى الدروبى ، الهيئه المصريه للتأليف – القاهره ١٩٧١ ص ٢٥

(٣) J.Royce : The Philosophy of Loyalty pp.182-185

من الواضح أن فلسفة الولاء ، تبين محاولة « رويس » تحقيق تزاوج بين المثالية الألمانية والبراجماتية ، أو تحقيق نوع من التوافق بينها . فلقد كان محور الخلاف بين المثالية والبراجماتية فى الأخلاق بوجه عام ، يكمن فى السؤال التالى : أيكون مدار الأخلاق أداء الواجب الذى يقتضية المبدأ الثابت الذى لا يتغير ، أم يكون مدارها على النتائج المترتبة على الفعل ؟ فجاءت فلسفة الولاء توفيقا بين وجهى النظر . فتكون الأخلاق مطلقة ونسبية فى أن واحد ، فقد يتصرف الفرد وفق ما تقضيه الظروف ويختار القضية التى يخلص لها ، وهذه هى النسبية ، ولكن على شرط أن يتكون من مختلف الإرادات والرغبات كل متسق تتكون منه حياة روحية واحدة أو وحدة روحية ، تتمثل فى الإخلاص لقضية الولاء للولاء وهذه هى الناحية المطلقة . كذلك إستطاع « رويس » أن يوفق بين أن يكون أساس الأخلاق طاعة المبدأ ، المتمثل فى الولاء للولاء ، والإذعان للإرادة الجمعية ، وأن يكون أساسها النظر إلى النتائج المثمثلة فى خير الفرد أو نتائج القضية فى الواقع أو تأكيد الذات ووحدتها .

كما تظهر محاولة التوفيق بين المثالية والبراجماتية في محاولة « رويس » وضع أساس ميتافيزيقى لفلسفة الولاء ، فقدم نظرية فى الصدق ، يبرهن بها علي واقعيه القضايا وعلى وجود حقيقة أبدية ، ووحدة روحية للعالم ، وبذلك يصبح للولاء أساس ميتافيزيقى ، ويرتبط بنظرية محكمة فى الصدق ، ويبدو الإتجاه المثالى واضحا . من جهة أخري يظهر الإتجاه البراجماتي فى إعتبار الحق إشباع لحاجة ، وإن كان الصدق يرتبط بالنفع عند البراجماتين ، فان « رويس » قد جعله اتفاقاً بين الذات والعالم وكل فكر ينجح فى تحقيق التوافق يعد صادقا(١) . وإذا كان الصدق إشباعاً لحاجة ، فإن ما يحتاجه الفرد ، هو تحقيق الوحدة مع الحقيقة الابدية ، وصدق القضايا يكون « فى التحقق الناجح لمطلب ما » ولا بد من وجود تجربة حية تشبع هذا المطلب . وأما بالنسبة للعالم الواقعى ، يتفق « رويس » مع البراجماتية ، في أن الفرد لا يستطيع التعامل مع عالم مستقل عنه ، طالما أن أفكاره تسعي للتحقق ، فإنه يعرف العالم الواقعى باعتباره موضوعاً لأفعاله . كما يتفق مع المثالية ونظرة « كانط » للعالم فى أن محتويات العالم ومادته من طبيعتة التجربه الإنسانية ، أو بالمعنى

(١) Ibid ., pp. 370-372.

الكانطي ، خاضع لشرائط العقل وشروط التجربة ، ويحقق بنائه ثباتاً للافعال . كما يظهر التوفيق بين المثالية والبراجماتية فى المزج بين فكرة الفروض المسبقة عند « كانط » ، ووجود قضايا مسلم بصدقها أو تصورات قبلية يتم التعامل بناء عليها (١) ، وبين فكرة « الإعتقاد » التى تعد من أفكار البراجماتية الأساسية سواء عند « وليم جيمس » أو « شارلزبيرس » ، إذ يؤسس « رويس » سلوك الولاء على فكرة « الاعتقاد » ، ففى التعريف الميتافيزيقى للولاء يقرر أن الولاء هو الرغبة فى التعبير عن الابدى فى السلوك الفردى وما الاعتقاد إلا فرضاً مسبقاً .

تؤكد فلسفة الولاء على وجود علاقة أساسية بين حياة الولاء والدين ، وأن الحياة الدينية الصحيحة تعبر عن حياة الولاء . ويتم الاتحاد بين الأخلاق والدين من خلال إعتقاد كل من « المؤمن » و « المخلص » بوحدة العالم ، وبأن العالم مجتمع ، ولا يتم هذا الإتحاد إلا بتحقيق عنصرين ، الأول إعتبار فلسفة الولاء الفلسفة الأخلاقية الحقة ، والثانى تحويل الدين إلى « رمز » للحقيقة الأبدية ، وبذلك تقدم فلسفة الولاء حلاً لعلاقة الأخلاق بالدين . والحقيقة أنه بالرغم من أن « رويس » ، يرى أن الإتحاد بين الدين والأخلاق ، يأتى تلقائيا طبيعياً من خلال ميتافيزيقا الولاء والدين والإيمان بوجود الحقيقة الأبدية ، إلا أن من الواضح أن الاتحاد يعد إتحاداً مشروطا، أو يجعل الأخلاق أسبق من الدين وحاوية له ، فالشرط الاساسى لتحقيق هذا الإتحاد ، يتمثل فى معاناه المخلص وشعوره بالحزن نتيجة الإخلاص لقضية خاسرة ، حتي يتوفر له الإيمان بعالم فوق إنسانى ، تكسب منه القضية الخاسرة قيمتها وواقعيتها . وأما فى مجال الدين ، فإن الشرط يتمثل فى تفسير الدين بأنه يحوى نظرية اخلاقية ونظرية فى الكون وإعتقاد المؤمن في حقيقة أبدية واحدة ، وتحويل ما جاء فى الوحى الى مجموعة من الرموز إلتى تشير الى تلك الحقيقة الأبدية (٢) . فلئن كان « رويس » يرى أن المخلص يحيا حياة دينية ، الا أنها حياة دينية بمفهوم خاص . فيكون المقصود بالدين هنا ، دين العقل ، أو التأويل ، وليس الدين بمفهومه التقليدى ، وبذلك يصبح الدين تجربة عابرة فى حياة الولاء ، واذا ما خضع للشروط يثرى تلك الحياة ويمتد بها . من

(١) F.Copleston, S.J.:A History of Philosophy, Vol 6,pp70-80

(٢) J.Royce : Philosophy of Loyalty pp.382-389, 379.

جهة أخري يمكن تبرير الإتحاد بين الدين والأخلاق من خلال الوجدان والخيال فنتيجة المعاناة من جراء الولاء لقضية خاسرة ، يميل المخلص معتمداً على الخيال للإيمان بعالم فوق إنسانى ، كذلك المتدين ، يومن بقضايا ، لا يمتلك دليلاً على صدقها ، فيصاحب إيمانه المعاناه والبلاء . لذلك يمكن القول بأن الأتحاد بين الدين والأخلاق ، يكون تلقائيا فى الجانب الوجدانى أو العاطفى ومشروطاً فى الجانب العقلى ، وبذلك يكون الوجدان التربة التي ينبت فيها الإتحاد بين الأخلاق والدين ، ويكون العقل بتأويل الدين ، وبتحويل القضية إلى مثل أعلى وتعقيلها ، هو الماء الذى يغذى هذا الاتحاد .

والحقيقة أن « رويس » لم يبرر ضرورة الربط بين الأخلاق والدين ، ولم يوضح مخاطر الفصل بينهما أو إستقلالهما . فيكفى أن يكون الفرد مخلصاً حتي يتحقق خيره الأقصى ، ويقتصر دور الدين على أنه إذا تم تأويله وتحويله إلي رموز ، يعطي للمخلص بعض لمحات أو إشارات على وجود عالم فوق إنسانى ، وبذلك يتحقق ما يسمى بالدين المطلق . الأمر الذي يجعل هذا الدين المطلق مجرد « دين الولاء » ، ومصحوب بنظرة صوفية للكون ، يمكن « لدين الولاء » أن يحيا بدونها ، وكأن « رويس » يتفق مع « كانط » فى أن الدين لا يوضح للإنسان كيف يكون سعيداً أو يعلمة ما لا تستطيع الأخلاق مده به . فمن الواضح أن الولاء يستوعب الأديان ، وله جذوره فى الطبيعة الإنسانية وله ميتافيزيقاه ، ويحقق للفرد خلاصه ويصالح الإرادة الفردية مع الإرادة الجمعية ، ويشكل معياراً للقيم ، وله أنبياءه الذين يضحون بأنفسهم فى سبيل قضاياهم ، فيصبح الولاء دينا ، وسلوك المخلص عبادة .

والحقيقة أن « فلسفة الولاء » كما صاغها « رويس » ، فلسفة تؤدى إلى الحيرة ويصعب تصنيفها ، أتعد فلسفة بحته أى تنتمي لفلسفه الأخلاق بصوره عامة ، أم تعد فلسفة دينية ، تنتمى إلى المجال الدينى . وإذا صح الإفتراض بإنتمائها للدين ، أتنتمي للدين الطبيعى الذى صاغة « رويس » فى كتاباته الفلسفيه الأولى أم تنتمى إلى الدين المسيحى ومشكلاته التى صاغها فى مؤلفاته المتأخرة فى كتابه « مشكلة المسيحية » كذلك إذا

كان هناك علاقة بين الولاء والديـن أو إنتـماء الولاء لفلسـفة الديـن ، أجـاءت فلسفة الـولاء ، صـورة فلسـفية تعـبر عن الدين المسيحـى ، أى صـورة فلسفية للمسيحية ، أم صورة مسيحية للفلسفة ؟ بمعنى هل جاءت فلسفة الولاء ، تـبريراً للمسـيحية ومشكلاتها ، وأن المسيحـية هى الديـن الحـق أم جاءت المسيحـية تطبيـقاً لفلسفة الولاء ، وتعاليم السـيد وأقوال « بولس » ، نموذجاً للولاء . الحقيقه أنه يمكن تفسير فلسفه الولاء تفسيرين :

التفسير الأول : أن فلسـفه الولاء فلسفه إخلاقية بحته وبذلك تصبح دراسة « رويس » الميتافيزيقية والأخلاقية والدينية بصورة عامه ما هى إلا تمهيداً وإثباتاً وتأكيداً لهذه الفلسفه ومما يؤكد هذا الزعم .

أولاً : أنها جـاءت فى مرحلة متوسطة بين مؤلفات « رويس » أى فى عام ١٩٠٨ ، أى بعد ظهـور كـتاب الجانـب الدينـى للفلسفة (١٨٨٥) الذى عرض فيه فلسـفته الدينـية والأخلاقـية وكتـاب العالم والفـرد (١٩٠١) الذى عـرض فيه ميـتافيزيقاه . وجـاءت قبل ظهور كتاب « مشكلة المسيحية » (١٩١٣) الذى طبق فيه فلسفه الولاء ، وبالتالى تصبـح فلسـفـة الولاء هى الأصل ، فالكتابات الفلسفية الأولى تمهد لها ، والمتأخرة تطبيق لها .

ثانيا : يلاحظ أن « رويس » سعى لتأسيس فلسفة الولاء ، بنظرية فى الحقيقة وفى وجود العالم ، وبالتالى تصبح فلسفة الولاء فلسفة بحته لها جذورها الفلسفية ، ثم حاول إثبات صحة هذه الفلسـفة بالتطبيق العملى ، فطبقها على بعض مشكلات المجتمع الأمريكى (١). وبالتالى تصبح فلسفة إجتماعية ، ثم طبقها على مشكلات المسيحية . وبالتالى تصبح المسيحية دين الولاء . ومعنى ذلك أن « رويس » يتهم بالدرجه الأولى بالمجتمع وفلسفة الولاء فلسفة اجتماعية ، يتم تفسير المسيحية مـن خلالها ، أو تصب المسيحية فيها ، وأقوال السيد وتعاليم «بولس» ما هى إلا أثباتاً لها كذلك يلاحظ أن «رويس»

---

(١) J.Royce : The Philosophy of Loyalty .pp.199-211.

حاول اثبات أن الولاء يتفق مع المذهب الفردى الأخلاقى ، ولا يمكن تحقيق الفردية والحرية الاخلاقية إلا بالـولاء . وبالتـالى يصـبح الإخـلاص للمجـتمع ، غاية الولاء ، ولا بد أن تكون القضية إجتماعية ، وبالتالى يصـبح المجتمع المصب الـذى يصب فيـه كل فـكر فلسفى أو دينى .

ثالثا : يلاحظ أن « رويس » إعتبر كل باحث عن الحقيقة ، وكل مؤمن بدين ما وبحقيقة فوق إنسانية ، من المخلصين لقضية « الولاء للولاء » وبذلك يجمع الإخلاص بين الفلاسفة والمؤمنين ، ويعتبر الولاء القيمة الكامنه والدافعة وراء كل فكري فلسفى أو دينى .

التفسير الثانى : أن فلسـفة الـولاء ، قـد صيغت لتبرير المسيحية ، ومما يؤكد هذا الزعم :

أولا : أن « رويس » فى كتاباته الفلسفية الأولي ، كان فيلسوفاً مؤمنا ، والمسيحية هى الروح الدفين فى كل مؤلفاته ، سواء فى المشكلات التى حاول حلها ، أو في ميتافيزيقاه التى أسسها تأسيساً عقليا بحتاً ، أو فى روح فلسفته الدينية ، التى قد توحى أو يفهم منها أنها فلسفة للدين الطبيعى والحقيقة أن هذا الدين ما هو الا الدين المسيحى .

ثانيا : إذا كان كتابه الجانب الدينى للفلسفة (١٨٨٥) قـد عـرض لفكرة الفلسفى العـام ، وجاء كتابه العالم والفـرد (١٩٠١) كعرض تفصيلى لمشكلات المعرفـة والوجـود ، فإن كتـاب فلسفـه الولاء (١٩٠٨) قد جاء كعرض وإعادة صياغة لفلسفته الأخلاقية ، وبالتالى يكـتمل ويترابط المـذهب الفلـسفى بتفصـيلاته ، ثـم يظهر كتاب«مشـكله المسيحية» (١٩١٣) الذي يعالج مشكلات المسيحية فى ضـوء المـذهب ، وبالتالي يمـكن القول بأن فلسفة الولاء كانت من الناحية التاريخية الفلسفة المكملة والممهدة لمناقشة المسيحية ومشكلاتها ، وبالتالى تصبح فلسفة الولاء فلسفة خادمة وتبريريه للفكر الدينى المسيحى .

وثالثا يلاحظ أن « رويس » فى كتابه « فلسفة الولاء » أكد على قدره إتصاف القضية بالعموم وإعتبر القضايا الإجتماعية (١) أنسب قضايا الولاء ، ثم عاد فى كتابه « مشكلات المسيحية » فقال بأن الولاء يكون لقضايا دينية (٢) . وبالتالى تصبح قضايا الدين هى القضايا الجديرة بالولاء ، وفلسفة الولاء فلسفة تؤدى إلى الإيمان بوجود حقيقة فوق إنسانية . وقد يظهر إعتراض ، بأن ذلك لا يعنى إعتبارها فلسفة تبرر المسيحية ، ويمكن أن تكون تبريراً لأى دين آخر ، سماوى أو إنسانى ، ولكن ما يؤكد إعتبارها تبريراً للمسيحية ، أن « رويس » طالب بضروره التدريب على الولاء (٣) ، وأنه لا بد وأن يتم على يد قائد يضرب نموذجاً للولاء ويضحى بحياته من أجل القضية التى يخلص لها ويعلن « رويس » بأن المسيح قائد المخلصين والمثل الأعلى لهم . كذلك جاد تأكيده بضرورة المعاناة والعذاب والألم ، والإنتهاء إلى الموت من أجل القضية ، حتي تكسب القضية بالإخلاص لها وخلودها ، وبذلك يعتبرالمسيح ومعاناته وحلبة النموذج الحق للولاء (٤) . وأكد على أن الكنيسة نموذج لمجتمع المخلصين ، وأخيراً ومما يوكد هذا الزعم أن « رويس » لم يطبق فلسفة الولاء على أى دين أخر ، وإنما إختار المسيحية كنموذج لفلسفة الولاء وبالتالى يمكن القول بأن فلسفة الولاء ما هى إلا فلسفة دينية مسيحية . والحقيقة وأن كان كلا التفسيرين يتسقان مع النهج المزدوج لفلسفة « رويس » الدينية ، إلا أن التفسير الثانى أكثر إتساقاً مع الروح الكامنة لفلسفة « رويس » الدينية . تلك الفلسفة التى يمكن ردها فى النهاية إلا أنها مجرد إعادة صياغة للمسيحية ، ومحاولة لاحيائها ، وإعادة الثقة فيها ، والولاء أنسب فلسفة تعيد مثل هذه الثقة ، فما على المواطن ، إلا أن يخلص لقضية ما ، حتى وإن كان لا يعلم النتائج المترتبة عليها .

---

(١) J.Royce : The Philosophy of Loyalty .pp.17, 20 , 252.

(٢) J.Royce : TheProblem of Christianity p.I.pp.114-115.

(٣) J.Royce : The Philosophy of Loyalty .pp.269-276.

(٤) Ibid., p.294